تقرير

خليل حرب
khalilharb66@gmail.com

من الشاه وتيمور بختيار إلى لاريجاني لبنان وإيران: العلاقة البديهيّة والمعقّدة

عمر علاقات لبنان مع ايران تتخطى 100 عام، لكنها لم تتسم بنسق واحد، وحكمتها عوامل تبدلات السلطة والسياسة في بيروت وفي طهران ايضا، وبعناصر المشهد الاقليمي وصراعاته والتي كانت تدفعهما اما الى تقارب وتفاهم وهدوء، واما الى توتر وفتور او قطيعة

عندما حط الامين العام للمجلس الاعلى للامن القومي الايراني علي لاريجاني في بيروت في 13 آب الماضي، في زيارة حظيت باهتمام اعلامي كبير وضجة سياسية واسعة، لم يكن يفتح صفحة جديدة او يطويها مع لبنان، وانما كانت الزيارة تعبيرا رمزيا عن مدى الحضور الايراني في تشعبات الحياة السياسية في لبنان منذ عقود.

ليس سرا ان تمتين علاقات لبنان منذ استقلاله مع دول بعينها، لم تكن في غالب الاحيان تحظى بالاجماع اللبناني، ولا تزال، تثير حفيظة سلطة سياسية ما، او طائفة ما، او حزب ما، وهي ملاحظة يمكن تتبعها في العلاقات مع عواصم مثل دمشق، الرياض، القاهرة، واشنطن، باريس، موسكو، بغداد، اضافة الى طهران التي لم تكن استثناء.

لم يتمكن لبنان من حماية نفسه وتحصينها من عواصف التقلبات والتحالفات المتصارعة والعلاقات الديبلوماسية التي تبدو في لحظة ما، شديدة التماسك، وفي لحظات اخرى، عرضة للتدهور والهشاشة. بالطبع، هي قضية مصالح ورؤى واجندات لبنانية متباينة، واحيانا متصادمة، وتترك اثرها المباشر على العلاقات مع الدول الاخرى.

ايران تشكل نموذجا واضحا لهذه الظاهرة اللبنانية الفريدة، اذ تحكمت بالعلاقة معها عوامل الزمن، طبيعة النظام في البلدين، ومدى ارتباط مصالح كل عاصمة منهما بوقائع الجغرافيا السياسية والنفوذ الاقليمي والدولي في المنطقة.

صحيح ان علاقات ايران بلبنان تعود رسميا الى العام 1927 من خلال القنصلية العامة لايران التي كانت تشمل سوريا وفلسطين ولبنان، لكن التمثيل الديبلوماسي لم يتحقق سوى بعد استقلال لبنان، وتحديدا في نيسان العام 1945 عندما افتتحت ايران سفارتها الاولى في لبنان، بينما افتتح اللبنانيون سفارتهم الاولى في طهران في شباط العام 1946.

هذا النشوء المتطور بهدوء للعلاقات، سيدخل بعد ذلك مرحلة متأثرة بالتجاذبات والنفوذ والصراع. سيأتي شاه ايران الى بيروت في العام 1957، تعبيرا عن علاقات آخذة في التطور تتعدى التقارب البحت مع الرئيس كميل شمعون، لأن طهران وقتها ارادت التأكيد على ان حكم شمعون يدور في فلك مشروع "حلف بغداد" (ايران الشاه، العراق الملكية، تركيا، باكستان وبريطانيا)، في مواجهة التيار الناصري الصاعد في المنطقة من خلال حكم جمال عبدالناصر في مصر.

شاه ايران كان حريصا على تأكيد زعامته الاقليمية، ولم يجد مانعا من اظهار بيروت، بما كانت تتمتع به وقتها من صورة مشعة اقليميا، وكأنها منخرطة في هذا التحالف السياسي - العسكري، رغم ان لبنان لم يكن عضوا في الحلف.

لكن الشاه كان يدرك ايضا ان الرئيس شمعون، يستشعر التحدي الذي باتت تمثله القومية العربية المتمددة شعبيا لا في لبنان وحده، بل في انحاء العالم العربي، بما حملته من افكار تحرر وتنمية بعناوين اشتراكية، سرعان من تلقفها الغرب، وخصوصا بريطانيا، بالتعاون مع حلفها (حلف بغداد) لتصويرها كأنها خطر شيوعي مصدره الاتحاد السوفياتي وقتها.

لم تساهم زيارة شاه ايران الى لبنان، في تهدئة الساحة اللبنانية، بل ساهمت في تأجيج المخاوف في شوارع المعارضة لحكم الرئيس شمعون الذي كان رفض قبلها ضغوط القوى الاسلامية والعروبية التي كان يمثلها الرئيسان عبدالله اليافي وصائب سلام لقطع العلاقات مع الدول الغربية (بريطانيا وفرنسا تحديدا) التي شاركت الى جانب اسرائيل، المنشأة حديثا، في شن ما عرف باسم "العدوان الثلاثي" على مصر.

لهذا، فان تقارب شمعون مع الشاه، واستطرادا من "حلف بغداد"، دفع الشارع اللبناني الى انقسام وتقاتل، مما اثار "ميني" حرب اهلية بعد شهور قليلة من زيارة الشاه التاريخية، وتحديدا في العام 1958، بينما استنجد الرئيس شمعون الذي من المعتقد انه حصل على شحنات سلاح ممولة من الشاه، لمواجهة المعارضة المسلحة ضده، بالرئيس الاميركي دوايت ايزنهاور، فحصل اول تدخل عسكري اميركي في لبنان، بانزال قوات "المارينز".

هكذا وجد لبنان نفسه في مهب عواصف الصراعات الاقليمية، وبالكاد خرج منها معافى بصعوبة، بعدما وضعت الحرب الاهلية اوزارها سريعا.

لكن لبنان سيجد نفسه عرضة للتقلبات الايرانية الداخلية، التي تسببت في قطع العلاقات بين طهران وبيروت، بعدما استقبل لبنان على اراضيه تيمور بختيار، وهو اول رئيس لجهاز "السافاك" الايراني، الذي عرف ببطشه ودمويته ومؤامرة الانقلاب على رئيس الوزراء محمد مصدق، ويمكن وصفه ايضا بأنه "عراب" علاقات الشاه مع الاسرائيليين، وتحديدا مع جهاز الموساد.

لكن بعد اقالته في العام 1961 لأسباب من بينها محاولة التواطؤ مع الاميركيين لتنظيم انقلاب على الشاه نفسه، لجأ الى اوروبا والعراق، ووقع معتقلا في بيروت في اواخر الستينات بينما كان يحاول تهريب اسلحة لتمويل حركة تمرد ايرانية تتمركز على الاراضي العراقي ضد نظام الشاه.

ولأن بيروت، تحت رئاسة الرئيس شارل حلو، رفضت في العام 1969 طلب الشاه تسليم بختيار باعتبار انه طلب اللجوء السياسي ولأنه كان سيتعرض للاعدام، وهي قضية تدخل فيها البطريرك مار بطرس بولس المعوشي معارضا تسليمه، فقد انتهت القضية بالطلب منه مغادرة الاراضي اللبنانية، لكنه اغتيل لاحقا في العراق العام 1970.

لم تستمر القطيعة اللبنانية - الايرانية طويلا، ذلك ان الرئيس سليمان فرنجية نجح في اعادة ترميمها سريعا، وزار بدعوة من نظام الشاه، طهران برفقة الرئيس السابق شمعون، فاستعيدت العلاقات الديبلوماسية مجددا من خلال السفير اللبناني خليل الخليل، وظلت على هذ الحال، حتى بعد اندلاع الحرب الاهلية في لبنان العام 1975.

مجددا، فان زلزالا ايرانيا هائلا تمثل في الثورة الاسلامية بقيادة السيد الخميني، ضد نظام الشاه الشديد الصلة بالاميركيين والاسرائيليين، وكان وقتها فؤاد الترك سفيرا للبنان في طهران (1979) سيدخل العلاقات اللبنانية -الايرانية في بداية حقبة جديدة، سترتسم معالمها تدريجا.

لن يكون لبنان وحده من سيتأثر بهذا الزلزال الايراني، اذ اختلت موازين القوى والنفوذ في انحاء الشرق الاوسط الاوسع. مصالح الولايات المتحدة اصيبت في الصميم، واسرائيل خسرت "اعترافا" من دولة وازنة في الاقليم، سرعان ما اشهرت عداءها لـ "الشيطان الاكبر" والكيان الاسرائيلي، ومنحت سفارته في طهران للفلسطينيين فورا، في وقت كانت الفصائل الفلسطينية تخوض اكثر مراحل كفاحها المسلح خطورة، وكانت الساحة اللبنانية غارقة في الاقتتال الاهلي، وصراع القوى السياسية والمسلحة بالوكالة عن القوى الاقليمية المتعددة.

لكن ايران كانت لا تزال خارج مشهد الاحتراب اللبناني. مع ذلك، فان بيروت ستتفاعل بالتاكيد مع ارتدادات الزلزال الايراني، وستتخذ منحى جذريا يحمل دلالات كثيرة مع الغزو الاسرائيلي للبنان واحتلال عاصمته بيروت، بينما شعرت شريحة كبيرة من اللبنانيين بالخذلان من الدول العربية التي لم تفعل شيئا يذكر لوقف العدوان، لا عسكريا ولا سياسيا، بينما قررت ايران في المقابل القيام بشيء. رغم انهماك الايرانيين بالحرب القاسية والمدمرة مع نظام صدام حسين الذي غزا اراضيهم، فانهم قرروا ◄

بين خاتمي ونجاد

كان الرئيس الايراني محمد خاتمي الذي كان يمثل ما يسمى التيار الاصلاحي اول رئيس ايراني بعد الثورة الاسلامية منذ العام 1979 يزور بيروت، وذلك بعد اسابيع قليلة على احتلال الاميركيين بغداد واسقاط نظام صدام حسين. وقد التقى وقتها الرؤساء اميل لحود ونبيه بري ورفيق الحريري. وجاءت الزيارة ردا على زيارة الرئيس لحود الى طهران في العام 2000. الزيارة الثانية لرئيس ايراني والتي اثارت جدلا كبيرا في لبنان، كانت للرئيس محمود احمدي نجاد في العام 2010، حيث التقى الرؤساء ميشال سليمان ونبيه بري وسعد الحريري. وكانت طهران ساهمت بفعالية في جهود اعادة الاعمار بعد الحرب الاسرائيلية في العام 2006.

80 عاماً
تصميم. إنجاز. مثابرة

"العلاقات عمرها نحو 100 سنة واول سفارة ايرانية العام 1945"

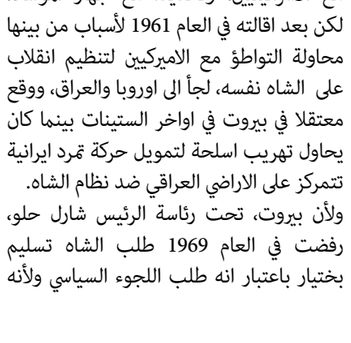

ارسال مجموعات من المتطوعين الايرانيين، ثم مجموعة من قادة وعناصر الحرس الثوري الايراني، لتدريب مجموعات من المقاومين. لم يكن حزب الله موجودا في ذلك الوقت، لكن الخلايا الاولى للمقاومة المدربة ايرانية، بدأت تتشكل في العام 1983. ومن المعتقد ان الايرانيين بحثوا امكان ارسال قوات اكبر الى لبنان ليتم نقلهم عبر الاراضي السورية، لكن تقول مصادر ان الرغبة الايرانية هذه اصطدمت باعتراض من نظام الرئيس السوري حافظ الاسد وقتها.

الوجود الايراني اثار قطيعة ديبلوماسية جديدة مع بيروت حيث طلب رئيس الوزراء وقتها شفيق الوزان، عندما كان امين الجميل رئيسا للجمهورية، من ايران سحب متطوعيها، لكن طهران رفضت فقطعت العلاقات العام 1984 لمدة سنة قبل استعادتها. قبل ذلك، تعرض فريق من الديبلوماسيين الايرانيين الى الخطف على ايدي من يعتقد انهم ميليشيا مسلحة بينما كانوا على الطريق الساحلية آتين الى بيروت عبر الشمال، واختفوا منذ ذلك الوقت.

تحول حزب الله تدريجا الى لاعب لبناني واقليمي يحسب له حساب، وسينتقد من بعض خصومه مرارا على انه "وكيل" لايران، رغم ان قادة الحزب اكدوا مرارا انهم يعملون باستقلالية عن طهران حتى وان كانت تمول الحزب. حتى ان مسؤولين ايرانيين قالوا ايضا انهم لا يوجهون الحزب لبنانيا، وانما يستمعون منه لرشدهم في الطرقات الوعرة والشائكة للسياسة اللبنانية.

من دون فهم هذه الخلفية، قد يكون من الصعب الالمام بشكل متوازن بدوافع الامين العام للمجلس الاعلى للامن القومي الايراني علي لاريجاني، بعد ايام فقط على تعيين السيد علي خامنئي له في منصبه، للمجيء الى بيروت في زيارته الاخيرة، وبعد 5 ايام فقط على قرار الحكومة حصر السلاح في يد الدولة.

ولاريجاني، المعروف بقربه من السيد علي خامنئي، جاء الى بيروت قادما من بغداد التي جرى خلالها التوقيع على اتفاق امني جديد، في وقت تشهد نقاشا ساخنا تحت ظلال الضغط الاميركي، في ما يتعلق بمصير قانون الحشد الشعبي ودوره في المستقبل الامني والسياسي للعراق. وهو يدرك ان تطورات المشهد اللبناني -والعراقي طبعا - تعني انه يتحتم على طهران ان ترسم حدا فاصلا امام درجة التنازلات او المساومات الاقليمية التي يمكن ان تقبل بها، بعدما خاضت مع اسرائيل حربا قاسية ومؤذية، اظهرت ان قواعد الصراع مع اسرائيل قد تبدلت بغير رجعة، خصوصا وان واشنطن دونالد ترامب انضمت اليها.

لكن رسالة لاريجاني، بخلاف محاولة ترطيب الاجواء الديبلوماسية مع حكومة لبنان التي تحاول اظهار النأي بالنفس عن المحور الايراني، وهي تسعى الى مخاطبة ود ادارة ترامب، لم تكن تحتمل الالتباس: صحيح ان قرار لبنان المتعلق بحصر السلاح هو شأن لبناني داخلي، لكن طهران تقول ضمنيا انها لا تعتزم ان تترك حزب الله وحده ليطوق من الداخل والخارج.

هناك نقطة تصادم واضحة تلوح في الافق، لأن الاسرائيلي كما يبدو يريد استغلال مرحلة ما بعد حرب الاسناد، وحرب غزة، لاعادة فرض قواعد اشتباك جديدة ليس على لا لبنان وحده، (فرضها في سوريا كما يبدو) وانما في انحاء المنطقة وصولا الى ايران نفسها، مما ينذر بالاشتباك الاكبر، او تكرار سيناريو حرب الايام الـ12 بين طهران وتل ابيب.

هكذا يجد لبنان نفسه مجددا اسيرا امام التحولات الاقليمية وصراعاتها، ما لم يحسن ادارة الازمة الحالية المتعلقة بحصر السلاح، حتى لا يكون هناك تكرار لا للحرب الاهلية المصغرة في العام 1958، ولا لتجربة الصدام المسلح خلال حكم الرئيس امين الجميل في النصف الاول من الثمانينات والذي تسبب في تمزيق الجيش تدريجا، ولا لكارثة غزو 1982 او العدوان الاخير عام 2024، المتواصل بشكل او بآخر حتى الآن.

من الواضح ان لا لبنان ولا ايران، رغم العقود الطويلة من العلاقة بينهما والتي اهتزت كثيرا، لم يتمكنا من بناء علاقة راسخة ومتوازنة لا تحكمها التقلبات الداخلية والاقليمية.

بالتاكيد، لم ينجح لبنان – ربما لم يحاول اساسا او لم تجرؤ السلطة السياسية - على الاستفادة من المقترحات والعروض الكثيرة التي قدمها الايرانيون لدعم لبنان في المجالات الاقتصادية والكهربائية والطاقة وحتى في المجال العسكري لدعم القوات المسلحة اللبنانية النظامية، وهي عروض والحق يقال، كان في امكانها ان تعبر عن رغبة طهران في عدم الاقتصار بعلاقاته اللبنانية الوثيقة مع حزب الله وحركة امل وحدهما، وانما نقلها على الفضاء اللبناني الاوسع والاكثر نظامية.

الامام الصدر

يقول مؤرخون ان مجيء السيد موسى الصدر، الايراني المولد، الى لبنان خلال الخمسينات من القرن الماضي شكل انفتاحا ايرانيا مغايرا على الساحة السياسية والدينية اللبنانية، وهو من خلال تمثيله للمكون الشيعي، مع انفتاحه على القوى الدينية والطائفية الاخرى في لبنان، واثارته ما سمي "حركة المحرومين" ودفاعه عن حقوقهم المعيشية والسياسية، اكسبه الكثير من المؤيدين العابرين للطوائف، وايضا الكثير من الخصوم في الداخل والخارج.

شيعة لبنان وايران

ما يعكس عمق ارتباط ايران بلبنان، وتحديدا مع الطائفة الشيعية، يتداوله مؤرخون يقولون ان تحول ايران الى اعتناق المذهب الاثنى عشري الشيعي قبل نحو 500 عام، جاء بعد انتشار التصوف الذي جمع بين المعتقدات الشافعية السنية وبين حب آل البيت وخصوصا الامام علي، وهو ما سهل انتشار التشيع تدريجا في بعض مدنها ومناطقها. لكن في خلال عهد الشاه اسماعيل، تحولت الدولة الصفوية الى التشيع بالكامل. كما يقول مؤرخون ان الشيعة من جبل عامل الذي مثل معظم مناطق الجنوب اللبناني ساهموا بفعالية في نشر التشيع في ايران.

واشارت دراسة عن اعداد كبيرة من الطلاب الايرانيين في جامعات لبنان خلال الخمسينات من القرن الماضي، اضافة الى ان آلاف الطلاب اللبنانيين التحقوا في العقود الاربعة الماضية بجامعات ايران، وهناك الاف اللبنانيين المستقرين اجتماعيا ومعيشيا في مدن ايران. كما ان العديد من العائلات الايرانية التي هاجرت الى لبنان وتحديدا الى جبل عامل منذ بدايات القرن 20، ومن المعتقد انهم ساهموا في نقل تراث طقوس عاشوراء الى مناطق النبطية وجوارها.